مدينة القاهرة

بحث في تأسيسها وسبب تسميتها
على ذكر الاحتفال بعيدها الألفي

للفاضل صالح مجدي

عضو لجنة التاريخ القبطي

قال علي باشا مبارك في الجزء الثالث من خططه في ترجمة القائد جوهر الرومي الأصل ما يأتي « لما عزم المعز على تسيير الجيوش لأخذ مصر وتهيأ امره قدَّم عليها القائد جوهر ومعهُ ما يتيف على مئة الف فارس وبين يديه اكثر من الف صندوق من المال وكان المعز يخرج اليه في كل يوم ويخلو به وأطلق يده في بيوت امواله فأخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معهُ وخرج اليه يوماً فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع الجيش فالتفت المعز الى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال «والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ولتدخلنَّ الى مصر بالاردية من غير حرب ولتنزلنَّ في خرابات ابن طولون وتبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا »

فلما استولى القائد جوهر بعساكر مولاه الامام المعز على الديار المصرية في سنة ٩٦٨ ميلادية واصبحت جميع البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية من دون مقاومة ما شرع في تحقيق رغبة مولاه فعمد الى بناء عاصمة الفاطميين على نمط تنافس به بغداد عاصمة العباسيين حتى يخلد لنفسه ذكراً حسناً فاختار في سنة ٣٥٩ هجرية (٩٧٠ ميلادية) بقعة من الارض هي التي أناخ جماله فيها يوم جاء لفتح الفسطاط فانهُ نزل الى شماليها حيث الجامع الأزهر وبيت القاضي وخان الخليلي وبين القصرين وما جاورها من الاماكن التي بين الجبل والخليج وصارت القاهرة دار الخلافة يحزها الخليفة بحرمه وخواصه

وقد وصف علي باشا مبارك في الجزء الاول من خططه المكان الذي اختير لانشاء العاصمة الفاطمية الجديدة فقال « وكانت هذه البقعة رمالاً فيما بين مصر الفسطاط وعين شمس التي تسمى الآن بالمطرية يمر بها الناس عند سيرهم من الفسطاط الى عين شمس . وعند نزول جوهر بهذه الرملة لم يكن فيها غير البساتين وأماكن قليلة منها بستان الأخشيد محمد بن طغج المعروف بالكافوري وكان هذا البستان في شرقي الخليج ومحله اليوم فيما بين جامع الشعراني والسكة الجديدة

قريباً من قنطرة الموسكي ممتداً في جهة الشرقية الى الجامعين وكانت مساحته ستة وثلاثين فداناً بمقياسنا اليوم ويجاوره من الجهة الشرقية ميدان الاحتفال وحده الآن من ضفة الخليج الشرقية الى شارع العسكرية والغورية وكان في محل الجامع الأقمر دير للنصارى يعرف بدير العظام تزعم النصارى ان فيه بعض من أدرك المسيح عليه السلام وبئر هذا الجامع هي بئر ذلك الدير وتسميها العامة بئر اعظم وكان بهذه الرملة موضع آخر يعرف بقصر الشوك ينزله بنو عذره في الجاهلية وصار عند بناء القاهرة خططاً يعرف بقصر الشوك وفي تلك الحقبة كان الخليج المصري ينتهي الى قنطرة بناها عبد العزيز بن مروان سنة ٨٩ هـ موضعها الآن مستهى حارة السيدة زينب رضي الله عنها وكانت الحارة طريقاً لا بناء فيه تمر الناس فوق تلك القنطرة الى برء الغربي والى ساحل النيل وكان في غربي الخليج المصري فجاه مسكر جوهر قرية تعرف بأم دنين ثم عرفت بعدها بالقس وهي الآن خط من الخطاط القاهرة واقع الى يسار من يسلك من شارع كلوت بك الى سكة الحديد ممتداً الى الشارع الواقع عليه جامع اولاد عنان وكان الخليج فاصلاً بينها وبين الرملة المذكورة ثم صار بعد بناء القاهرة ميداناً توضع فيه الغلال سماه المقريزي ميدان القمح ٤

وقال أيضاً في هذا الجزء من خططه ... ٤ ولما دخلت عساكر المعز الديار المصرية سار جوهر الى الفسطاط ودخلها يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ فاختار ان يبني بحريها بعيداً عنها فاختص لمعسكر في الرملة التي كانت بجاه قرية أم دنين

«فاستقر جوهر هناك واختط القصر فلما اصبح المصريون ذهبوا اليه للهنئة فوجدوه قد حفر أساس القصر ليلاً وكانت فيه ازورارات فلما رآه لم تعجبه ثم أخفى عنها وقال انه قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة فتركه على حاله وأدخل فيه دير العظام الذي في محله الجامع الاقمر واختطت كل قبيلة خطة عرفت بها وأدار السور الذي جعله من لبن على مساحة الذي نزل فيه بعساكره وسماها المنصورية ولما كملت في ثلاث سنين وبلغ المعز اتمامها خرج من مدينة المنصورة تحت ملكه بالمغرب يريد ارض مصر فدخل الاسكندرية وأقام بها مدة ثم سار الى الفسطاط بعساكره واجتاز النيل على جسر عمله له جوهر عند البستان المسمى بالخفار وكان في الطرف البحري من جزيرة المقياس فلم يدخل الفسطاط مع انها نزلت له واستمد أهلها للاقامة بل سار الى ان دخل القاهرة وكان معه اولاده واخوته وسائر اولاد جده عبيد الله المهدي اول ملوك الدولة الفاطمية بالمغرب وتوريث آبائه ٤

ولما أدخل جوهر دير العظام في القصر عوض المسيحيين الاقباط عنه بدير الخندق ونقل جوهر العائد المقدس الذي كانت في الدير المذكور الى دير الخندق المعروف الآن بدير رويس فدفنها وبنى مكان الدير مسجد الأقمر من داخل السور

وقد جاء في خطط المقريزي أن القاهرة في اول الأمر كانت تسمى القلعة والطابية والمعقل والحصن وقصد القائد باختطاطها في هذا الموقع ان تكون حصناً للفسطاط من يقصدها من جهتها البحرية وقد أطلق عليها اسم المنصورية والمعزية أيضاً . وكانت في الحقيقة عبارة عن قصرين عظيمين وملحقاتهما وبينهما ميدان فسيح يكفي لعرض عشرة آلاف جندي وكان عدد سكانها وقت انشائها نحو ثلاثين ألفاً

وقال ابن سعيد في كتاب المغرب في حلى المغرب عن اليعقوبي « وأما مدينة القاهرة فهي الباهرة التي تفنن فيها الفاطميون وابدعوا في بنائها واتخذوها وطناً لخلافتهم فنسي الفسطاط وزهد فيه بعد الاغتباط وقال سميت القاهرة لانها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أميرها وندروا ان منها يملكون الارض ويستولون على قهر الأمم وكانوا يظهرون ذلك ويتحدثون به

وقال المقريزي في الجزء الثالث من خططه في باب ذكر سور القاهرة « ولما سار جوهر من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ بعساكره وقصد الى مناخه الذي رسمهُ لهُ مولاه الامام المعز لدين الله ابو تميم معد واستقرت به الدار احتط القصر وأصبح المصريون يهنئونهُ فوجدوه قد حفر الاساس في الليل فأدار السور اللبن وسماها المنصورية الى ان قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب الى مصر ونزل بها فسماها القاهرة ويقال في سبب تسميتها ان القائد جوهر لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرّفهم انهُ يريد عمارة بلد في ظاهر مصر ليقيم بها الجند وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الاساس بحيث لا يخرج البلد عن تسلمه ابداً فاختاروا طالعاً لوضع الاساس وطالعاً لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس وقالوا للعمال اذا تحركت الاجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فاتفق ان وقع غراب على حبل من تلك الحبال التي فيها الأجراس فتحركت كلها فظن العمال ان المنجمين حركوها فالقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح المنجمون القاهر في الطالع فسمي ذلك وقتهم ما قصدوه ويقال ان المريخ كان في الطالع عند ابتداء الاساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة واقتضى نظرهم انها لا تزال تحت القهر »

وقال اسنالي لين بول المؤرخ الشهير في كتاب العصور الوسطى من تاريخ مصر « ان الحقيقة المؤكدة ان المنجمين للقاهرة قدماء واستشارهم في أصلح وقت يمكن ابتداء فيه بوضع أساسات المدينة الجديدة التي اختطها جوهر فأشاروا عليه بتعليق أجراس في حبال ينصبونها على أعمدة حول تخطيطات المدينة وأمروا العملة ان لا يبدأوا بعمل الا عندما يسمعون دق الاجراس وأخذ المنجمون يرصدون النجوم لمختاروا أنسب وقت لبدء العمل فيه

ولكن مساعيه خمدت لأن غرة وقع على احد الحمام فدقت الأجراس قبل الموعد المنتظر فأسرع المنجمان بوضع الأساسات وحينئذ رأى جوهر ان يسمي المدينة الجديدة باسم الكوكب الذي كان طالعاً في لحظة دق الأجراس وكان كوكب القاهر او المريخ فاستشار جوهر بتسمية المدينة باسم القاهرة قبساً بهذا الكوكب »

وورد في القاموس القبطي الذي وضعهُ العلامة الايزي اقلاديوس بك نيب أن اسم القاهرة او المحروسة او مصر القاهرة ترجع الى اللغة القبطية بكلمة Tkeshemmi وهي مركبة من كلة Kesh او Kish ومعناها كبر أو فوز ومن « Remi » ومعناها رجل أو انسان وهي تسمية حديثة من القرون القبطية المتأخرة

أما ما ذهب اليه بعض من ان اسم القاهرة مؤلف من لفظتين قبطيتين وهو « Kahe » بمعنى ارض و « [illegible] » بمعنى رع أي الشمس فهو انكار حديث مجرد المصادفة بين نطق الاسم العربي الاصل ونطق اللفظتين القبطيتين وليس لهُ أصل في الكتب والقواميس والمراجع القبطية ولم يذكرهُ العلامة شمبوليون « Champollion » في كتابه عن مصر الفراعنة ولا العلامة كترمير « Quatremere » في مؤلفه الجغرافي والتاريخي لمصر ولا العلامة اميلينو « Amelineau » في كتابه جغرافية مصر ولا يمكن اول اطلاق هذا الاسم القبطي على مدينة الشمس الحقيقية وهي عين شمس التي تعرف باسم « اون » لأنها خليفة به

ويظهر انهم صاغوا هذا الاسم قياساً على اسم مدينة هور اذ قالوا ان اسمها القبطي « Kahor » مؤلف من لفظتين قبطيتين « Kahi » بمعنى ارض و « Hor » الاله هوروس وهي بالقرب من الاشمونين في مديرية اسيوط بمركز الروضة . والذي ذهب الى هذا الرأي هو العلامة كازانوفا [illegible] على سبيل الحدس اذ قال هذا العلامة في كتابه « الاسماء القبطية » عند ذكر القاهرة ما يلي :—

« ان هذا الاسم هو بلا شك عربي محض وهو مؤنث القاهر أي المكاسر وقال البعض انهُ اسم لكوكب المريخ الذي سميت المدينة على طالعه وقال بعض ان هذا الاسم اطلق على المدينة لأن جوهرا بنجم قصار القاصدين ولكني لا أرى مانعاً من ان الاحظ ان المحل الذي أسست فيه مدينة القاهرة يمكن حسبانه ضاحية لعين شمس مدينة رع وان الترجمة القبطية [illegible] او [illegible] ارض رع تطابق النطق العربي للقاهرة تقاربا ومعنى وان كان العلامة كازانوفا يمكنهُ ان يعترض بان مدينة [illegible] هي ارض هور يمكن التسليم كذلك بان كلة القاهرة العربية تطابق لفظة قبطية معناها كما ذكرنا وان كان هذا استنتاج القاصدين جد الامر ان لفظة هذا ما تجهله ولكن معلوم ان المعروف الكثير هو الذي حملني أنوه بذلك على سبيل التخمين لحض

وقال كازانوفا عند ذكر مدينة مصرما يلي « ولو أني مقتنع بان مدينة مصرام Mistram تنطبق على القاهرة ولكني اعتبرهذا الرأي من قبيل الحدس والتخمين لان مجموعة كيمي Kimi ومصرام يمكن ان تدل على مجموعة اخرى غير مصر والقاهرة وكذا يمكن ان يرى في لفظة مصرام شكل آخر للفظة Koshromi لانهُ لا يغرب عن الظن انهُ كان للقبط مجموعة اخرى مكونة من الفسطاط (مصر) وبابيلون (قصر الشمع) وعلى اي حال فأن في هذا الرأي مجازفة .

وقال العلاّمة ده روجيه J. de Rongé في كتابه عن جغرافية الوجه البحري القديم انهُ اطلق على مدينة عين شمس اسم Peitfri Bilino كما انهُ قال ايضاً ان العلاّمة بروجش Brugsch يميز مدينتين مختلفتين في عين شمس الاولى اسمها « Pira » بمعنى سماء رع أو بيت الشمس وهي مدينة الهياكل والمعابد والثانية « On » بمعنى شمس وهي المدينة العلمانية أي المدنية

ولم يذكر جنابه عند ما سرد اسماء المدن المكونة لمدينة عين شمس وضواحيها وملحقاتها شيئاً اسمه Kahira وكذا عندما تكلم عن مدينتي بابليون والفسطاط وما جاورهما وفي هذا الدليل الساطع على عدم وجود مدينة قديمة في ضاحية عين شمس ولا في ضاحية الفسطاط ولا فيما بينهما تحمل اسم القاهرة . كما ان العلاّمة دارسي G. Daressy لم يذكر في ابحاثه عن المدن المصرية في العهد القبطي مدينة تعرف باسم القاهرة Kahira

وبناء على ما سبق إيضاحه نرى ان العلاّمة كازانوفا لم يقل ان مدينة القاهرة الفاطمية بنيت على أنقاض او تلال مدينة مصرية قديمة لان جميع المؤرخين اجمعوا على ان موضع القاهرة كان سهلاً رمليًّا لا أثر لتلال فيه ولم يذكر التاريخ ان الفواطم عثروا على آثار وقت تخطيطهم المدينة كما ان جنابه لم يقل انهُ عثر على كلمة قاهرة القبطية في القواميس او التواريخ القديمة بل انهُ رأي استنتاجي غير مبني على أساس تاريخي وكل عمدته فيه هو القياس والصدفة من جراء تحت كلمة قبطية طابقت في نطقها لفظ العربي وخصوصاً انهُ قرر صراحة بان اسم مدينة القاهرة عربي محض وانهُ لم يقل أحد ان الفواطم استعانوا بالقبط على تسمية العاصمة الجديدة فلا تكون التسمية مصرية قديمة كما انها لم توضع بمعرفة قبط مصر وقت انشاء المدينة وان القصد الحقيقي منها هو القهر والكسر اي ان الغرض من التسمية هو تعريف المدينة بانها لا تقهر ولذلك ترجمها القبط المعاصرون للفتح الفاطمي باسم Tikoshromi الدال على معنى القهر وهذا ما وصل اليه بحثي في موضوع التسمية واسبابها التاريخية

وقد تمَّ بناء القاهرة في نحو ثلاث سنوات ووصل خليفة المعز لدين الله اليها آتياً من المغرب مدخلها في أواخر مايو سنة ٩٧٢ ميلادية وكان دخوله احتفالاً عظيماً من بعد زريبه وبني جوهر القصور ولم يزل بعض آثاره باقياً الى اليوم